الطفل الجزائري، بين إكراهات الواقع وتطلعات الرؤية المستقبلية في كتابات "سعد مردف"

The Algerian child between the constraints of reality and the aspirations of the future vision in the works of "Saad Mredef"

الدكتور/ بن حركات الجمعي*

قسم اللغة والأدب العربي –جامعة باتنة 1 (الجزائر)

djemai.benharket@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2024/08/01 تاريخ القبول 2024/10/29 تاريخ النشر 2024/12/17

ملخص:

لقد اضطلع الأديب "سعد مردف" بإنجاز مشروع أدبي منصب أساسا على رسم الطفولة الجزائرية في جزئياتها، وتفاصيلها، وكلياتها من خلال تبني استراتيجية واعية في الكتابة، تقوم على مهارة بارعة في توظيف سهل للآليات الفنية، والجمالية الهامة، من لغة، وأسلوب، وصور، وإيقاعات، وتشكيلات مختلفة، موازاة مع رؤيته الفكرية المحكمة، التي أثْرت بنجاح، وببراعة عوالم الدوال، والجماليات، والتشكيلات الفنية.

الكلمات المفتاحية: سعد مردف؛ أدب الطفل؛ سيكولوجية الطفل؛ الأنشودة التربوية؛ قيم الهوية.

Abstract:

Saad Mredef has undertaken a literary project focused mainly on drawing the Algerian childhood in its particles, details and faculties through the adoption of a conscious strategy in writing based on a distinctive skill in employing all the important technical and aesthetic

* المؤلف المراسل

mechanisms, including language, style, image, rhythms and various formations, in parallel with the tight intellectual vision that successfully and brilliantly framed the worlds of signification, aesthetics and artistic formations.

key words: Saad Mredef; Children literature; child psychology; educational chant; Values of identity.

مقدّمة:

مرحلة الطفولة هي المرحلة التي تتكون فيها بذور شخصية الفرد، ويتحدّد إطارها العام. لذا نجد أن القرآن الكريم أعطى مكانة للطفل، وبيّن لنا معاناته على أرض الواقع، فها هي قصة سيدنا يوسف –عليه السلام– دالة على ذلك؛ حيث أبرزت لنا هذه القصة محنة سيدنا يوسف –عليه السلام– مع إخوته حين كان صغيرا. فالقصة وضحت نار الغيرة التي كانت متأججة في قلوب الإخوة.

«اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ».[1]

ومن معاناة الطفل أيضا تجربة سيدنا موسى –عليه السلام– مع فرعون، هذا الأخير الذي تنبأ بمقدم نبي تكون نهاية فرعون على يده، وكان رد فعل فرعون أنه قتل كل مولود ذكر يولد لبني إسرائيل.

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)». [2]

ولما أدركت أمه الخطر الذي يهدد ولدها وضعته في تابوت، فتدخلت العناية الربانية، وحمل اليمّ هذا التابوت إلى قصر فرعون، حيث احتضنته امرأة فرعون، وتكفلت برعايته.

«وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».[3]

نسجل أيضا حضور الطفل في بعض النصوص الشعرية، فها هو الشاعر "عمرو بن كلثوم" يفتخر بشباب قومه:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما *** تخر له الجبابرة ساجدينا. (4)

كما رسم "الحطيئة" صورة الطفل الذي جسده في ثلاثة أشباح حفاة عراة، وتقدم واحد منهم طالبا من أبيه أن يذبحه، ويقدمه طعاما حتى يكرم الضيف الذي حل بهم.

وطاو ثلاثٍ عاصبِ البطن مُرمَلٍ *** ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

إلى أن يقول:

تَفَـرَّدَ فِي شِعْــبٍ عَجُـوزًا إِزَاءَهَا *** ثَلَاثَــةُ أَشْبَــاحٍ تَخَالُهُــمْ بُهْمَــا

حُفَاةً عُرَاةً مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ *** ولاَ عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا. (5)

بينما كان الأب يعاني من حيرة قتل ابنه، الذي طلب منه أن يذبحه، ويقدمه للضيف، أتاه الفرج بظهور قطيع من حمر الوحش، الذي اتجه إلى البحيرة ليشرب الماء، فصوب الأب سهمه، فأصاب واحدة، قدمها للضيف إكراما له.

فَقَالَ: هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلَا قِرَى *** بِحَقِّكَ لاَ تَحْرِمْهُ تَا اللَّيْلَةَ اللَّحْمَا

فَقَالَ ابْنُــهُ لَمَّــا رَآهُ بِحَــيْرَةٍ *** أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَـهُ طَعْمَا. (6)

ومن بين الشعراء أيضا الذين تحدثوا عن الطفل، وصوروا لنا حالة اليتم التي يعاني منها هذا الأخير نتيجة فقدانه لوالده، الشاعر "معروف الرصافي".

وَقَفْتُ أُجِيلُ الطَّرْفَ فِيهِمْ فَرَاعَنِي **** هُنَاكَ صَبِيٌّ بَينهُــم مُـتَرَعْـرِعُ

صَبِيٌّ صَبِيحُ الوَجْهِ أَسْمَرُ شَاحِبٌ **** نَحِيفُ المَنَانِي أَدْعَجُ العَيْنِ أَنْزَعُ

عَلَيْهِ دَرِيسٌ يَعْصِرُ اليتْــمُ رِدْنَــهُ **** فَيَقْطُرُ فَقْرٌ مِنْ حَوَاشِيهِ مُذْقِعُ

ويرْسِلُ مِنْ عَيْنَيْهِ نَظْرَةَ مُجْهِــشٍ **** وَمَا هُوَ بالبَاكِي وَلَا العَينُ تَدْمَــعُ. (7)

كما صور لنا الشاعر "معروف الرصافي" حالة الطفل الذي أخرج من عالم اللهو، والمرح، والبراءة إلى عالم الحرمان، والمعاناة نتيجة فقدانه لوالده.

لَقَدْ جَثَمَتْ فَوْقَ التُّرَابِ وَحَوْلَهَـا **** صَغِيرٌ لَهَا يَرْنُـــو بِعَيْنَيْ مُيَتَّـــمِ
بَكَى حَوْلَهَا جُوعًا فَغَذَّتْهُ بِالبُكَـــا **** وَلَيْسَ البُكَا إِلَّا تَعِلَّـــةَ مُعْـــدَمِ
فَقَـالَ لَهَـــا لَمَّـا رَآنِـــي وَاقِفًـــا **** أُرَدِّدُ فِيـــهِ نَظْـــرَةَ المُتَوَسِّـمِ
سَلِي ذَا الفَتَى يَا أُمُّ أَيْنَ مَضَى أَبِي **** وَهَلْ هُوَ يَأْتِينَا مَسَاءً بِمَطْعَمِ؟[8]

ومن بين الشعراء الذين أعطوا مكانة للطفل، وصوروا آلامه، وضعفه نتيجة فقدان والده، الشاعرة "فدوى طوقان"، من خلال قصيدة موسومة بـ "يتيم وأم".

هاضه الوهن فأعياه الألم **** وسطا الضَّعف عليه والسقم

إلى أن تقول:

نَظَرَ الطِّفْلُ إِلَيْهَا صَامِتًـا **** وَبِعَيْنَيْـهِ حَدِيـثٌ وَكَلِـــمْ
قَالَ: يَا أُمِّي تُرَى أَيْنَ أَبِـــي **** لِمَ لَا يَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ اعْتَزَمْ؟!
نَاشِدِيهِ أَوِ اسْأَلِيهِ رَجْعَةً **** فَكَمْ يَفْرَحُ قَلْـبِي لَـوْ قَـــدِمْ[9]

وبظهور الاستدمار الذي حل بالأقطار العربية، عانى الطفل من مرارة العيش، وحرم من عالم البراءة، واللهو، وأقحم داخل عالم التعب. فها هو الشاعر "بدر شاكر السياب" الذي كشف هو الآخر عن براءة الطفل في مواجهة دمار الأسلحة، التي كان من المفروض أن يكون بعيدا عنها، جسّد هذا في قصيدة "الأسلحة والأطفال".

عَصَـــافِيرٌ؟ أَمْ مُصِـــيبَه؟
لَهَـا سَـنًا مِـنْ غَـدِ يَلْمَـح
وَأَقْـــــدَامُهَا العَادِيَـــــة

وَأَعْمَارُهَـا فِي يَـدِ الطَّاغِيَـة
وَأَلْحَانُهَـــــالحُلْـــوَة[10]

المعجم اللغوي:

إن لكل قصاص لغته، وأسلوبه، وقديما قيل:

"الأسلوب هو الرجل".

«أسلوب الكاتب هو الكاتب نفسه، فكرا، وخلقا، وشخصية، وجوهرا، وكيانا».[11]

إن الموضوعات التي تطرق إليها الأديب "سعد مردف" في نصوصه الشعرية، والقصصية، فرضت عليه اللجوء إلى تبني أدوات لغوية معينة تؤدي ما يريد أن يبلغه للقراء من رؤى، وأفكار، وجماليات.

جدلية الفصحى والعامية:

إن غالبية الأدباء، والباحثين الذين تطرقوا لقضية اللغة، والأسلوب في أدب الطفل يجمعون على ضرورة مراعاة لغة الطفل.

لغة الأديب "سعد مردف" لغة سهلة بسيطة في متناول مستوى الأطفال، فلغته سليمة بعيدة كل البعد عن عمق اللغة العربية التقليدية، وقوتها، الهدف منها أساسا تبليغ فكرة، وتحقيق التواصل مع أكبر عدد من الأطفال، فالأديب يخاطب الأطفال بما يفهمون، ويخاطبهم حسب عقولهم. فاستعمال اللغة الفصيحة التقليدية ربما يكون سببا في نفور الأطفال من هذه النصوص، مما يؤدي بالكاتب إلى الفشل في استراتيجية التواصل الأدبي، والفكري، مع الجيل الذي يخاطبه من جهة، ومن جهة أخرى، فلغته سهلة بسيطة؛ لأنها جاءت على أفواه الأطفال، والمعبرة أيضا عن الوضع الذي عايشه الكاتب البسيط. إنها لغة مدرسية تخضع في كل شيء لقواعد اللغة التي يتعلمها الصغار في المدرسة، حيث تشجعه على التعلم الذاتي، كما كانت لغته خالية من التعقيد بفقرات

مبسطة، وقصيرة، وبعيدة عن الأفكار الساذجة، والغريبة، بل أراد أن يلمس أحاسيسهم، ويداعب خلجاتهم.

وقد حاول الكاتب أن يتجذر في العبقرية العربية، وذلك باستحضار الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة في بعض الأحيان، وبثها في ثنايا النص القصصي.

«تقول لي أمي مرارا: إنني موعود بالجنة، تردد على مسمعي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من فقد حبيبتيه وصبر لم أجد له جزاء إلا الجنة)، ولأني أحب رسول الله، وأصدقه فقد كنت أؤمن دائما بأنني محظوظ بأن الله سيبدلني عن عيني الحبيبتين –إن صبرت– جنة، ونعيما». (12)

ولجوء الأديب إلى الاستعانة بالمعجم القرآني، والحديث النبوي دليل تأثره بالثقافة الدينية المؤسسة للمرجعية الثقافية في الجزائر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف تعلم منهما القصاص، ومنهما استقى علم البلاغة، فمنهما.

«يتعلم منه الشاعر، و(القصاص)، ويحلم به، فهو منتهى البلاغة، ومستقبل الكتابة مهما كان نوعها، وتاريخها». (13)

فالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف خيرا بيان، وأجملا قول، وأبلغا كلام، صقلا الذوق الأدبي لدى الكتّاب، وجعل الأدباء يؤثرون أساليبه.

«والهدف من اقتباس شيء من القرآن، والحديث النبوي في الخطاب الأدبي لا يكون من قبيل التبرك، وتوشية الشكل، وإنما الغرض من ذلك هو تأكيد الكلام، وتقوية المعنى، وإضفاء لون من القداسة على جانب من صياغة ذلك الخطاب لما في تلك النصوص من هيبة، وتقديس». (14)

وهذا النوع من الكتابة الدينية التي تبناها الشاعر بهدف التأثير أيضا على الشرائح الاجتماعية الواسعة.

اللهُ أَكْبَـــرُ جَــــلّ اللهُ وَاجِدُنـَـا **** الكبريَـاءُ لـهُ فَـــرْدٌ بِهَــا اتّصَفَـــا
اللهُ أَكْبَــرُ أعْطَى أَهْلَـهُ شَرَفًـــا **** وَذَلَّ مَنْ قَدْ عَصَى أَوْ مَا بِــهِ اعْتَرَفَـــا
هَذَا هُوَ البَيْبُ بَيْتُ الله جَادَ بِــــهِ **** رَبُّ السَّمَاء، فَحَــازَ العِــزَّ وَالشَّرَفَا
المَسْجِدُ الأَعْظَمُ الزّاهِي بِحُلّتِــهِ **** يَمْحُو الضّلاَلَ وَيَمْضِي يَنْشُرُ الصُّحُفَا
بَابُ الصَّلاَة وَبَابُ العِلْمِ مَا بَزَغَتْ **** شَمْسٌ، وَمَا قَدْ سَجَى لَيلٌ وَمَـا اخْتَلَفَـا. (15)

لغته أيضا فصيحة أنيقة في بعض القصص، يريد الكاتب من خلالها أن يزود الطفل بالقاموس اللغوي الفصيح، مثل: "طلق المحيا"، "يثنون"، "ترفض، "اربداد"، "اهتبال"، "الهواجر"، "الأحراج"... الخ.

دقيق الملاحظة، صاحب عين نافذة، وبصيرة لاقطة، يحمل قلما، ويرسم صورا بألفاظ، وتعابير موسيقية عذبة رنانة، ينتقي أبلغ المعاني، ويرسخها في النفس، ويترك الطفل يعيش أحداث النص، كما راعى الجانب الترويحي لنفس الطفل، وتنمية الذوق الفني، والحسي لدى الطفل.

«آه يا محفظتي، إن لي معك، ذكريات عذبة كنسمات الصباحات التي سرنا فيها معا، وأنا أتناولك من محملك اللطيف، أو أضعك على ظهري الصغير، فأشعر بنعومتك، وأنت تلامسين كتفيَّ، وأعبق بطيب فوحك، وأسير فأراك هادئة وديعة، وأسرع فتهتزين كأنك ترقصين، وأمر على أصدقائي، فلا يملكون إلا أن يطربوا لألوانك الزاهية البديعة، وأصفرك الفاقع، وأحمرك القاني، وقفلك الذهبي البراق، كأنك صندوق للعجائب!!». (16)

لم يستخدم الكاتب اللغة التي تحبط معنويات الطفل، وتضعف ثقته بنفسه، وتجعله يحقد على الآخرين، من خلال سلوكات بعض الأطفال، وهذه بعض الأمثلة على التعابير التي تحمل في طياتها كرها لبعضهم البعض يكمن هذا في قصة: "دفتر إياد" المستمدة من "قصص مدرسية –نصوص للمطالعة–"، ص: 45.

طلبت المعلمة من "إياد" الصعود إلى السبورة للإجابة على التمرين، لكن لدى رجوعه إلى مكانه وجد كراسه ممزقا، أحدهم مزق دفتره، فكر أن يخبر المعلمة، لكنه تراجع عن الشكوى، وفي اليوم الموالي أحضر معه الحلوى، وقدمها لزملائه، شكروه على ذلك، وتقدم واحد منهم طالبا العفو، وأخبره بأنه هو الذي مزق دفتره، لكن "إياد" سامحه، وذكره بالحديث النبوي الشريف: (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون).

فكل هذه التعابير، والكلمات الآنفة الذكر تشجع على الابتعاد عن الصفات الذميمة، والمتمثلة في: الحقد، الكره، تجنب السلوكات السلبية، الابتعاد عن الأخطاء، ضعف العمق العاطفي، بل تعلم القيم، والعلاقات الاجتماعية المتمثلة في التسامح مع الآخرين، غرس العلاقات العاطفية مع الأطفال سواء في المدرسة، أو في البيت، أو مع المحيط، والابتعاد عن عقاب الطفل سواء أكان عقابا جسديا، أو معنويا.

فاستجابة "إياد" مع زملائه استجابة إثابة، ومكافأة لزملائه لعدم تكرار العمل، ويتمثل هذا في الحلوى التي قدمها لزملائه، فهو يعتبر نموذجا حسنا للتعامل مع الآخرين.

والنصيحة التي نستقرئها من هذه القصة أن لا تكون المكافأة فقط مادية في تقديم الحلوى لزملاء "إياد"، بل قد تكون معنوية متمثلة في ابتسامة، أو قبلة، وكلمات إطراء...

فكل هذه المكافآت تنمي لدى الطفل الثقة بالنفس، وحسن التصرف في المواقف، وابتكار الحلول المناسبة للمشاكل التي تعترضه في حياته، والاستفادة من تجارب محيطه. وعليه يوصي "علماء النفس" بالابتعاد عن العقاب بقدر الإمكان؛ لأنه يؤدي إلى السلوك المضاد، وهو من أساليب السلوك الاجتماعي غير المرغوب فيه.

هذا السلوك الذي قام به "إياد" استمده من الأسرة؛ لأنها تلعب دورا فعالا في تربية الطفل، فهي التي تعلمه التسامح، والمحبة، والأخوة.

فهو بمثابة البذرة التي تسقى بالشراب، وتنمو تدريجيا شيئا، فشيئا حتى تصبح شجرة تؤتي أكلها.

فالأسرة تعلم الطفل الهدوء، والاتزان، والابتعاد عن الانفعالية، وغرس الحب، والانسجام مع الذات، ومع الآخرين، كل هذه المواصفات تنعكس عليه، وهذا بعد خروجه إلى البيئة الاجتماعية؛ لأنها وفرت له المناخ المساعد في إنجاح مشروع طفل متسامح، ومتعلم، كما تجعله قادرا على التفكير، والتخطيط، ومعالجة المشكلات التي تصادفه في حياته اليومية، وتبث في نفسيته الحب، والاحترام من طرف أقرانه، وترتقي بوجدانه، وأحاسيسه، ومشاعره، وأن يتزود بمهارات، ودروس يستطيع تطبيقها في حياته.

هذه القصص تعلمه كيف يعيش حياته بشكل صحيح، وتقبل المجتمع لأخطاء الطفل العفوية، فهي جزء من العملية الإبداعية.

ومن خلال تجاربه يزداد الطفل في تفكيره، ونشاطاته مع من حوله تؤهله لاكتساب الخبرات، والتجارب، والمعارف التي تؤدي لتنمية قدراته العقلية المنبثة في شخصيته.

لغة الكاتب تعبر عن الحياة الواقعية التي يحياها الطفل من عالم واقعه، ومن عالم الطبيعة، ومن الكلمات الدالة على ذلك:

«عندما غربت الشمس، ونسج الليل خيوطه السوداء في الأفق»، «وحالما يبسط الليل إلى جناحيه على القرية»، «وربما لفت انتباهنا سطور متعرجة، وأخرى مستقيمة خطت على الرمال»، «وانتهت عند جحور مريبة في أطراف شجيرات المليح».

إضافة إلى قصص الحيوان، قصة خروف، ديك، اللقلق، الطيور... لأن الطفل يهوى عالم الحيوان، ويميل إليه أكثر، كما نلمس هذا في كتاب "كليلة ودمنة" لـ "ابن المقفع" الذي كان هو الآخر لغته بسيطة، وسهلة يفهمها الطفل؛ لأنها قريبة من خياله، ومن محيطه، وعالمه.

فكاتب أدب الطفل لابد أن يكون مثقفا، ومطلعا على قصص السابقين، حتى يستطيع أن يتعمق في نفسيته، وسيكولوجيته التربوية، وأن يبتعد عن القصص المثيرة للرعب، والخوف.

فالشاعر "سعد مردف" أراد أن يربي الطفل، ويغرس فيه أخلاقا عالية، مبتعدا على سبيل المثال لا الحصر في موضوع "السياقة الجنونية" لدى بعض السائقين، وهذا ما نلمسه في ديوانه الموسوم "أبي لا تسرع"، في قصيدة "أبي لا تسرع"، ص: 2.

فالأهداف التي يريد أن يصل إليها الشاعر تتمثل في المعارف الفكرية، والثقافية، وهذا بتنمية المعجم اللغوي لدى الطفل، والمعارف الأدبية، والتاريخية، والعلمية، مما يولد لدى الطفل الخيال الواسع تمكنه من مناقشة الموضوع الذي قدم له، وتكون له الجرأة لنقد الأفكار التي قدمها له المحاور، عن طريق النقد، والاستشهاد بأقوال العلماء، والأدباء، والمؤرخين، والفلاسفة...

سعى الكاتب أن يولد لدى الطفل "المهارات النفسية"، والتي تساعده على القراءة الصحيحة، ونطق الحروف بلغة سليمة، تساعده أيضا على المحادثات الشفوية، وهذا عن طريق إلقاء كلمة في مناسبة من المناسبات بإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة لدى قراءته لقصائد شعرية، أو لنصوص نثرية، مثل: القصة، المقال، المسرحية...

كما تساعد هذه المهارات لدى الطفل التخلص من الكبت، والخجل، والتوترات النفسية.

وظف الكاتب لغة حسية يلمسها الطفل، ولأنها ألصق بالنفس، ولم يستخدم الألفاظ المعنوية التي تنفر الطفل، وهو بهذا يتجنب الأفكار المجردة التي يصعب على الطفل استيعابها، يكمن هذا في قصيدة "الهاتف والسياقة" المبثوثة في ديوان "أبي لا تسرع". الكلمات المتمثلة في: النقال، السياقة، العجلات، السود، السير...الخ.

قام بالتصوير الحسي الجمالي، ليجذب الطفل لقراءة القصة، وهو بهذا التصوير الفني ينمي قدرات الطفل العاطفية، والخيالية، والعقلية، من أمثلة ذلك: "مهما اعترضتنا هوج الرياح، أو سيول الأمطار، أو جيوش الثلوج"، "الأشجار الصامتة، الجبال الصماء، عذوبة الأصوات الشجية".

«ما أجمل الطبيعة في الربيع، أوراق الأشجار خضراء، والأزهار بديعة الألوان، الطقس جميل ورائع (...).

الطفل: إذا لم نستطع أن نغني فيمكننا أن نستمتع بالغناء، انظر إلى تلك الأشجار الصامتة، والأزهار المستلقية على الروابي في صمتها الوارف، وانظر إلى تلك الجبال الصماء، إنها جميعا لا تنطق، ولا تتكلم إلا أنها ترهف أسماعها دائما إلى الغناء، تستمتع بعذوبة الأصوات الشجية المنبعثة هنا». (17)

ومما نلاحظه على قصص، وأشعار الكاتب أنها قصيرة يغمرها عنصر التشويق، وتبعد الطفل عن القلق، والفزع، والإحباط، بل أراد أن يدخل في نفسية الطفل المتعة، والتسلية، والمعرفة.

استمد الكاتب قاموسه من المحيط الذي يعيش فيه الطفل:

الأب، الأم، المحفظة، العصفور، حديقة الحيوانات... وهو بهذا التعبير لم يوظف مفردات غير مناسبة لسن، ومستوى الطفل، وغير مهذبة.

لا ننسى قصر القصص، والقصائد الشعرية، فهذا القصر يولد لدى الطفل التركيز، والاحتمال على القراءة، وفهمها، وإدراك معانيها.

اعتمد الأديب على القصص، والأشعار الواقعية، فهما بمثابة مرآة عاكسة لما يجري في الحياة الاجتماعية من أفراح، وأتراح، من سعادة، وشقاء، فهو يريد الحب، ويكره البغض، يحب الرحمة، ويمقت الغيظ، فأدبه هادف يريد تغليب الخير على الشر، ويريد من الطفل أن لا ييأس، ولا يتشاءم، فهو يؤمن بحتمية الانتصار، والثقة في النفس، والتفاؤل

الحقيقي الذي يرتبط بإرادة التغيير، والعزيمة، كما يريد من أبطاله أن تكون نماذج طيبة متسلحة بأفكار نبيلة، وأخلاق عالية، تتمثل في الحكمة التي جاءت على ألسنة الحيوانات، وفي مضامينها ترسيخ العلم في الأذهان الأطفال.

العِلْمُ فِيكَ سَلِسٌ **** وَمَـا لَهُ نَظِـــيرْ
يَفِيضُ مِـنْ مُعَلِّمٍ **** مَا بَيْنَنَا أَمِـــيرْ
يَظَلُّ فِـي دُرُوسِـــهِ **** بِعِلْمِهِ الغَزِيرْ
يُنِـــيرُ قَلْبَنَـــــا وَلَا **** يُصِيبُهُ فُتُـورْ. (18)

فالأديب يريد من قصصه، وأشعاره أن يشعر الطفل بالسعادة، والمتعة، حين يستمتع بقصص الحيوانات الصغيرة، مما يولد لديه الثقة بالنفس أحسن من ثقته بالكبار، كما يريد أن يغرس قيما تربوية، يجلى هذا في:

قصة الأرنب، العصفور، الخروف، الكلب، القط...الخ.

القيم الفنية: الصورة والإيقاع:

1- الصورة:

قام الكاتب بانتقاء العبارات السهلة البسيطة الموحية، والمعبرة عن أفكار شخصيات الأطفال، وما نلاحظه طغيان الوصف على الكتابة، وكذلك الحياة السيكولوجية، والاجتماعية للأطفال، وهذا نلمسه في قصة "الكناري والحرية"، المأخوذة من "قصص مدرسية –مصوص مدرسية للمطالعة-". ص: 28.

وبواسطة هذه الصور الفنية دمج الطفل، وجذبه إلى متابعة أحداث القصة، وتركته يتفهم الدلالات، والحكايات التي تحكى له من طرف الكاتب، وتبعث فيه الرغبة، والابتعاد عن الرتابة التي يعيشونها في حياتهم، حيث وظف "الاستعارة المكنية" في قوله: «تفتقت أكمام عقولنا»، «إذ سرعان ما تتمزق العلاقة بينهن»، «وبطريقة التعامل مع

معلها الذي يبذل جهده في إحياء النفوس بالعلم، وتزيينها بالفضائل»، «تمزق صفحات العداوة».

إضافة إلى "الاستعارة"، فإننا نجد أن الكاتب قد استعمل "الكناية"، و"التشبيه البليغ"، بهدف تجاوز الأسلوب السطحي العقيم، وتقوية المعنى، وتعميق الإيحاءات في ذهن الطفل، وهو يسعى أيضا إلى السمو بالطفل إلى تلذذ الجمال الفني، وتذوقه.

فمن أمثلة الكناية قوله: «تغلي قلوبهن حسدا»، كناية عن الحقد، والكراهية.

والتشبيه البليغ في قوله: «وكهفا لأسرارنا».

لقد جنح الشاعر إلى "الاستعارات"، و"الكنايات"، والتشابيه بهدف تحقيق نوع من الأدبيات، والجماليات الممتعة، كما اجتهد في ابتداع بعض الاستعارات، والكنايات، والتشابيه، التي ساعدته على إيصال بعض الأفكار، بطريقة ملتوية، وغير مباشرة. فكانت هناك ومضات، وأخيلة، دلت على قدرة الأديب في التصوير.

كما وظف الفعل المضارع الذي يعبر عن الحاضر، والمستقبل:

"أعبو"، "أسير"، "أسرع"، "أمر"، "يملكون"، "يطربوا"...

لإضفاء جو من الحركة، والحيوية داخل محتوى النص.

2- الإيقاع:

استخدم الشاعر في شعره إيقاعات خفيفة، وسهلة الحفظ تجعل الخطاب الأدبي أكثر واقعية، وأعمق تعبيرا، وصدقا، ولم يترك الشاعر من خلال إيقاعاته الطفل يتيه في أفكار فلسفية، وطلاسم صعبة الفهم، كما أراد أن يحرك مشاعر الطفل من خلال البحور الشعرية التي وظفها، مثل: بحر البسيط، وبحر الوافر، وبحر الكامل.

فمعظم النصوص الشعرية جاءت على النمط التقليدي للقصيدة، وهو يتلاءم مع النمط التعليمي، والتعلم.

وقد وظف هذه البحور السالفة الذكر الأقرب للأسماع، لما فيها من خفة، وتحقيق النغم الموسيقي الذي يتضمن محتويات القصائد.

التزم الشاعر بالقافية الموحدة مما حقق جماليات الإيقاعية، والموسيقية.

فخفة الموسيقى من العناصر التي حرص الشاعر على توظيفها، وهذه الإيقاعات لا تتطلب نفسا، وجهدا لاستيعابها، بل جاءت خفيفة.

الوزن الموسيقي الخفيف، الرشيق، الذي لا يتجاوز ثلاث كلمات، أو أربعا في كل بيت من أبيات النشيد؛ لأن الموسيقى رئة الشعر العربي التي يتنفس بها، وسر جماله، وبقائه، وأثره في الأجيال». (19)

فالخطاب الشعري لدى الشاعر جعله محركا للأفكار، والسلوكيات، والرؤى التي يريد تبليغها للطفل أملا في إحداث تأثير في القارئ، وتحقيق التواصل الجدلي الإيجابي الفعال، وكأن الشاعر يريد أن يبرهن بأنه على حق، وأن عبقرية البساطة خير شاهد على ما يقول:

مَالِي أَقُولُ وَلَا يُلْقُــونَ لِي بَــالَا **** حَذَارِ لَا تَأْمَنُوا فِي السَّيْرِ نَقَّـــالَا

وَفِي السِّيَاقَةِ إِيَّاكُــمْ مُهَاتَفَــةً **** فَتَخْسَرُوا العُمْرَ، وَالأَحْبَابَ، وَالمَالَا

(...)

هُوَ العَدُوُّ، وَشَيْطَانُ الطَّرِيقِ إِذَا **** نَادَى بِسَائِقِــهِ أَغْــوَاهُ، فَاغْتَــالَا (20)

جماليات القيم:

1- البعد الموضوعي:

عزف الكاتب عن الصور المألوفة التي عهدناها في التراث الأدبي العربي، ليبتدع صورا مأخوذة من محيطه، وعصره.

غير أن الأدبية الحقة لا يصنعها "المجاز"، وإنما هي مقدرة الكاتب في ابتداع الأشكال المناسبة لموضوعات يتحكم فيها. فالعبقرية الأدبية لا تكمن لا في "الاستعارة"،

ولا في "الكناية"، ولا في "المحسنات البديعية"، وإنما في هذا السر الدفين، الذي يتحكم في كيمياء الكتابة.

ولدى قراءتنا لمؤلفات الشاعر لاحظنا أنه قدم قصصا، وقصائد شعرية تتناسب مع سن الطفل، حيث وظف المعجم اللغوي المرتبط بواقع الطفل، والكشف عن نفسية الشخصيات، كما راعى القدرات العقلية التي يمتلكها الطفل، مما جعل القارئ يعتقد حقيقة أن ما يقرأ هو الواقع بعينه، كما ترك الشاعر الطفل يعيش بجوارحه، وأحاسيسه، إنه الانطباع الذي تهدف إليه الكتابة الواقعية.

2- القيم والتقاليد:

يفضل الكاتب توظيف "ابن الريف" لما يتميز به هذا الأخير من براءة، وصدق، وقيم أصيلة. فالطفل الريفي هو البطل الإيجابي الذي استأثر باهتمام الكاتب؛ لأنه يمثل الأصالة، وجزائر الأعماق، تلك الجزائر التي لم تدنسها أقدام المستدمرين، وبقيت صامدة في مواجهة الآخر، نلمس هذا في قصيدة "العصفور وفأر السوء"، من كتاب "حكايات الحيوانات"، ص: 15.

رغم سيطرة الواقعية على كتابات الكاتب، فإن النصوص لا تخلو من المواقف الإنسانية، والقيم الجمالية، والهدف من هذا الأسلوب هو تكسير الجمود، وإضفاء العاطفة الجياشة على جو القصائد التي كتبها، كما قام بدغدغة مشاعر القارئ لكي يتأثر بهذه الأحاسيس الفياضة، ويتركه يتجاوب مع الكاتب، وتتمثل هذه القيم في المجال التربوي المغلف بغلاف رقيق تتضمنه جمالية التعبير، وغرس القيم السلوكية، والاجتماعية، وهذا بالابتعاد عن السياقة في حالة النعاس، مأخوذة من ديوان "أبي لا تسرع"، ص: 22.

وعدم شرب الخمر، مصدر الشر، والفساد، وتحطيم الإرادة، والوعي الجديد.

إن الأديب يمتاز بانتقاء الألفاظ الملائمة للمعاني، مشبوب بالعاطفة، مرهف الإحساس، وينزل الكلمة منازلها، وهذا عن طريق الوعظ، والإرشاد، والتصوير الدقيق، والخيال الخصب، بعيدا عن الملل، والتكلف، هذا بالإضافة إلى أنه مجال حب للمشاعر، والأحاسيس، كما برز كثيرا من التجارب الإنسانية، وقدم لنا صورا أدبية مضمونها صور إنسانية تزيد أفكار الشاعر من فهم الطفل للحياة، والغوص في أحاسيسه، ومشاعره بتأثير الأعمال الأدبية في نفوس الأطفال، موظفا الكلمات التي تتلاءم مع حالاته النفسية: "الفرح، اللهو، الثناء، الإطراء...".

3- القيم الدينية:

لقد أراد الكاتب من خلال أشعاره، وقصصه أن يغرس في الطفل القيم الأصيلة، والتمسك بها، ويبث فيه روح التحدي، وهو ما نلمسه في قصيدة "صبرا على القضاء"، في ديوانه "أبي لا تسرع". ص: 25.

استلهم الشاعر من القرآن الكريم قيمة دينية تتمثل في الصبر؛ لأن ثوابه عند الله كبير، مما يوضح أن الشاعر يملك مخزونا دينيا استمده من: قصة إبراهيم وإسماعيل، وقصة يوسف مع إخوته، وقصة أم موسى.

وهو بهذه القصص يريد من الطفل أن يتسلح بالإرادة الفولاذية، والعزيمة القوية. فالتحدي تخرج منه هذا الجيل من الشبان، الذين حملوا بعث أمة جديدة، وابتداع إنسانية تسلحت بقوة الإرادة، والعزيمة، يتجلى هذا في قصيدة "في أحسن تقويم" المجسدة في ديوان "أنا مريض-نصوص عن الأطفال-". ص: 19.

لقد قام الكاتب بغرس القيم الدينية في نفسية الطفل، والتي تقوي الصلة القوية بخالقه، وهي صفات أخلاقية، وفكرية إيجابية المستمدة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فهو يريد من الطفل أن يكون وفيا لهذه الاستعدادات، ولهذه القيم التي يريد تشكيلها في نفسية الطفل، ويريد أن يوجهه توجيها سليما، وصحيحا، أراد أيضا أن

يربي الطفل على الانتماء، والهوية باعتبار الماضي عنصرا فعالا للمحافظة على الشخصية الوطنية، يتمثل هذا في القصة الموسومة "الاستئذان"، من كتاب: "قصص مدرسية" – نصوص للمطالعة–، ص: 3.

4– القيم الاجتماعية:

يريد الشاعر من الطفل التحامه بالصفات المحمودة، والإيجابية مع أترابه، وأفراد مجتمعه، يريد من هذه الشخصية النموذجية أن لا تكون لها أعداء قط، وهو بهذا يمثل أصالة الريف، وتجذر إنسان البادية في هويته، وقيمه الأصيلة، ويريد من هذه الشخصية أن تكون رمزا للرحمة، والحنان، والعطف مجسدا هذا في القصة الموسومة بـ "نظرة جديدة"، المستمدة من كتاب "قصص مدرسية"، ص: 16.

وقد ضاق الكاتب من تصرفات بعض التلاميذ الذين امتلأت قلوبهم بالحقد، والعداوة اتجاه زملائهم، الذين يتنافسون من أجل النجاح.

«احتار المعلم في الغيرة التي تأكل قلوب تلميذاته جراء تنافسهن الشديد، وعبثا حاول أن يقنعهن بأن حب النجاح، والسباق الشريف في طريق العلم لا يتطلب هذه المشاعر الملتهبة من الحقد، والكراهية، بل إن المودة، والاحترام يشجعان الجميع على بلوغ غايات المعرفة دون أن يتلطخ التلميذ بأوحال الصدام مع الزملاء، ولكن جهود المعلم كلها باءت بالفشل تقريبا، وظلت أجواء الصراع المحموم، والتلاسن داخل، وخارج المدرسة تخيم على العلاقات كلما تعين سؤال، أو مسألة استبق في الإجابة عنها التلميذات، ثم فازت واحدة منهن فيكون حظها في اللوم والشجب...». (21)

كما يريد أن تنبت نبتة الطفل نباتا حسنا، تكون بعيدة عن حثالة الطبقة المنبوذة؛ لأن الحياة مبنية على الصراع بين النور، والظلام.

5– القيم المعرفية والمعارف:

أراد الكاتب أن يبث في ذهن الطفل التحالف بين العلم، والعمل، والإخلاص له، فهو لا يريد من الطفل أن يعيش حالة اليأس، وهي لفتة من الكاتب للابتعاد عن الغش، والبهتان، والكذب، هذه الصفات التي تنقض على الفريسة وتلتهمها التهاما. فالتاجر لا بد أن يكون صادقا صدوقا في تجارته، وفي معاملاته مع زبائنه، يتجسد هذا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء». (صحيح الترغيب، ص: 1782).

ولا يكون منفرا، وبغيضا تتقزز منه النفس البشرية، ولا يخون الأمانة، وأن يبتعد عن الطفيلية التي تمتص دماء زبائنه بطريقة ميكيافيلية لتنهب الدراهم من جيوب زبائنها، يريد من التاجر أن يرسم على وجوه زبائنه الابتهاج، والسرور، والفرح، وهذه الصفات تشع ببهجتها على الآخرين، ويدخل الفرح، والسرور عليهم، نلمس هذا في كتاب "أبي حرفي" –للمطالعة المدرسية–، والذي يحتوي على القصص: "قصة حلاق"، "جزار الحي"، "حداد"، "إسكافي"، "نجار"، خياط".

وهو يريد من خلال هذه القصص تقديم النماذج الرائدة، والقدوة الحسنة، للأخلاق الطيبة، يريده أن يحترم المهن المختلفة، فلا يتركه يستهزئ ببعض الوظائف، فكل وظيفة تخدم الفرد، والوطن...

6– القيم الترفيهية:

يميل الطفل إلى اللعب بطبعه، فهذه القيمة لا نجدها فقط عند الطفل، بل هي أيضا عند الحيوانات، فهي تداعب بعضها البعض، فاللعب يمثل متنفسا له، من خلاله يعبر عن مكبوتاته النفسية، فالبنت تمارس لعبها مع الدمية، وهو أمر متواجد منذ القدم، ومضمونها النفسي تهيئتها إلى الأمومة، والأنوثة، وتربية الأبناء في مستقبل حياتها الزوجية، إلا أن الطفل يميل إلى الألعاب الخشنة، وبمرور الزمن أصبحت الرياضة في المدارس من الألعاب التي يتنفس فيها الطفل، وتستهويه.

إلا أن عصرنا الحالي تغيرت فيه الألعاب، فأصبح الطفل يداعب الكمبيوتر، ويظل منشغلا بألعابه طول نهاره، وهو بهذه الآلة لا يحتاج إلى الآخر للعب معه.

لكن الأديب جعل الطفل يلعب بما يحيط به من وسائل بسيطة كلعبه مع: العصفور، الخروف، الكلب، القطة، البطة...

وقد بين الروائي من خلال هذه الألعاب أن الطفل يعاني في أماكن الجنوب الصحراوي، وهي البيئة التي عاش فيها، حيث لا يجد مكانا للترفيه، والتسلية مثل طفل المدينة.

لقد صور الطفل في ألعابه شقيا لا يجد أماكن للترفيه تليق بسنه، بل يتنزه في أماكن مهجورة بحثا عن الأشباح، ولا يجد وسائل حديثة مثل اللعب بالطائرات، الألعاب الفنية، والبدنية، التي تساعده، وتدربه على صنع الأشياء، ومعرفة توظيفها، وبالتالي تزيده خبرة في الحياة، وتعطه معرفة جديدة من المعارف الخاصة باللعب، كصنع السيارات بوسائل بسيطة، وبناء المنازل، وتصميم الحيوانات...

ومن خلال هذه الألعاب يكتشف الطفل موهبته، حيث يخترع، ويبدع، ومن هنا تكتشف المواهب، ويكون ناجحا، ومتفوقا في عمله المستقبلي، وتنمي فيه أيضا روح المبادرة.

«وكنتَ كثيرا ما ترى نفرا من الأطفال الأشقياء، يجوبون الأحراج، والغابات، ومواقع الماء بحثا عن أعشاش الطيور، وفراخ الحمائم، وبأيديهم قِطَع الأحجار، وأعواد القصب، وما شئت من ألوان العصي، وقد تقع عينك على بعضهم، وهم يتسللون في نار الهواجر إلى الخرائب، والأبنية القديمة، والدور المهجورة بحثا عن الأشباح التي تأوي تحت سقوفها، أو عن الكنوز الدفينة خلف أنقاضها، والتي يتوهم أنها لأناس قد اضطرتهم نوازل الدهر، وجوائح الأيام إلى مغادرة دورهم، وترك ما فيها من نفائس طلبا للنجاة». (22)

بالمقابل نجد الطفل الذي يعيش في المدينة يتمسك بمغرياتها من حيث اللعب، ويعيش في غرفة تحتوي على الألعاب، وتكون مريحة من حيث أكسسوار البيت، يكمن هذا في طلاء جدرانها بألوان مختلفة كالأصفر، والأخضر، والأزرق، هذه الألوان تنعش نفسية الطفل، وتتركه لا يحس بالملل أثناء تواجده في عرفته المزينة بهذه الألوان، والتي تحفزه أيضا على تنمية خياله، وتبعد عنه الملل، كما تحتوي على طاولة، وكرسي يساعدان الطفل على المطالعة، والرسم، والتكوين، والقراءة، والكتابة، وأرقام ذات طابع ترفيهي، وتربوي.

لقد أكدت الدراسات النفسية، والاجتماعية أن اللعب يشكل تفتح شخصية الطفل، وهذا بالكشف عن ميولاته، ورغباته، ووظيفته إبعاد الطفل عن متاعب الحياة من هموم ومآسي، ولا يستطيع حل المشاكل التي تعترضه إلا بمساعدة محيطه الأسري.

فالمكان الوحيد الذي يتخذه الطفل مكانا للعب هو الشارع، وكثيرا ما يؤدي هذا المكان إلى الصراعات مع أقرانه، الذين يسكنون معه بنفس الحي.

فالأسرة لا تريد من الطفل اللعب، بل تريده أن يفكر مثل الكبار، واكتشاف الحلول الصعبة للمشاكل التي تعترضه، يريدون منه أن يتحمل المسؤولية، مثلما يتحملها الكبار، وإلا فإنهم ضعاف الشخصية. يقول فيلسوف صيني:

«إذا وضعتم مشاريع سنوية فازرعوا القمح، أما إذا كانت مشاريعكم لعقد من الزمن فاغرسوا الأشجار، أما إذا كانت مشاريعكم للحياة بكاملها، فما عليكم إلا أن تثقفوا، وتعلموا، وتنشئوا الإنسان، فما علينا إذا إلا أن نوفر فرص اللعب لأطفالنا فيلعبوا صغارا، ويعملوا كبارا».

قصص الكاتب قصص إنسانية روحية محتواها يبث روح الأمل، والحياة، والمستقبل، يريد من الأطفال التحرر من الغرائز، والأنانية، والدائرة الضيقة.

فالكاتب "سعد مردف"، يجند الطفل الشجاع، والمقدام، يريد منه الانضباط الواعي، والحامل للقيم الإنسانية الحقيقية، مثل: الشجاعة، الصمود، التضحية...

«والشاعر هو الذي يتخطى عالم فنه، ويتجاوزه ليكون معلّما، ومرشدا، وموجها، ويثير مشاعر الإنسانية، وينشر بشعره المبادئ السامية، والمثل العليا، ويحارب بكلماته الظلم، والشر، ويستهدف إنسانية ملؤها السعادة في جميع أرجاء هذه البسيطة المترامية الأطراف». (23)

لعب شعر الشاعر دورا فعالا في نشر روح التفاؤل الحقيقي، الذي يرتبط بإرادة التغيير، والعزيمة التي لا تفل، والإرادة التي لا تقهر، إنه المستقبل المشرق الذي يتطلب من الإنسان أن يصنعه بإرادته، وتضحياته.

«الشعر قوة هائلة تفعل في الأمم، والأفراد ما لا تفعله قوة البخار، والكهرباء، وأن هذه القوة هي الروح، التي يودعها الشاعر في خلال بيته بقوة بياته الساحر، فيدخل بدون إذن في آذان السامعين، فينفذ إلى قرارة نفوسهم، فيكون فيها إحساسا رقيقا، وشعورا حيا، فتتدارك ما فاتها من عز، وسؤدد». (24)

7- قيم الهوية والغيرية:

تنمية الشاعر الولاء للوطن، ومحاربة الظلم، والقهر، فشخصيته بقيت، وستبقى وفية لرمزيتها، ودلالتها. أراد أن يربي الطفل على الانتماء، والهوية باعتبار الماضي عنصرا فعالا للمحافظة على الشخصية الوطنية، يتمثل هذا في "العَلَم"، الذي يمثل الماضي، والحاضر، والمستقبل، يحمل في طياته المقاومة التي خاضها الشعب الجزائري ضد المستدمر، والتصدي له فكريا، وروحيا.

ف "العَلَم" بمثابة الذاكرة التي تربط الجيل الحاضر، والمستقبل بماضيه، الذي هو ماضي الجزائر، كما لعبت رمزية "العَلَم" دورا حيويا، وأساسيا يتمثل في ربط الشباب،

والأجيال الصاعدة بجذورهم، وانتماءاتهم الوطنية الأصلية في مواجهة كل ما يمت بصلة اتجاه المستدمر الفرنسي الغازي.

أراد الشاعر أن يغرس مقومات الشخصية الثقافية الوطنية في نفوس الشباب، والذي حاول المستدمر اجتثاثه من جذوره، واستئصاله من هويته ليصبح ريشة في مهب الريح.

يكتسي "العَلم" أهمية كبرى في الحفاظ، والدفاع عن الهوية الوطنية بأبعادها الاجتماعية، والثقافية، والسياسية المختلفة، فهو يرمز إلى قيم الأصالة، والتجذر، والانتماء. وقد غرس "العَلم" في الأجيال الماضية، والحاضرة، والمستقبلية حب الوطن، والافتخار بالأمجاد، والماضي المشرق، فهو الذي حافظ على كيان الشعب الجزائري من الضياع، وضمن له شروط البقاء، والتماسك.

أراد المستدمر أن يمحو شخصية الشعب الجزائري من خلال عَلَمه، ولكن لم يستطع في النهاية طمسه على الرغم من محاولاته الجبارة، فلقد لعب "العَلَم" دورا فعالا في تحرير البلاد؛ لأن الفرد الجزائري لدى التحاقه بالثورة في مخيلته أنه يحارب الكفار الاستدماريين، الذين أرادوا تحطيم الوطن. من هنا أصبح "العَلم" عاملا جوهريا من عوامل المقاومة؛ لأنه اكتسب طابع الدفاع عن كرامة الإنسان، وحريته. واستلهم "العَلم" فكرة الجهاد للدفاع عن الشخصية الوطنية، وهو رمز للعزة، والإباء.

البطولة الفدائية بطولة جماعية صنعتها الفئات الشعبية التي شكلتها عبقرية "العَلم"، الذي يكتسي دلالات معينة، ويرتبط بالجماهير الشعبية، والذي أصبح محركا للحياة. إن مقاومة الشعب الجزائري من خلال رمزية "العَلم" تعتبر رؤية أيديولوجية محكمة، وإلى فهم حقيقي بأغوار النفس الإنسانية، وإلى إدراك واع بحقيقة الديناميكية الاجتماعية. تحتويه قصيدة الشاعر الموسومة بـ "علمي".

عَلَـمِي عَلَمِـــــي **** فَـــوْقَ القِمَـــمِ

رَفْـــرَفَ يَزْهُـــو **** بَيْـــنَ الأُمَـــمِ
رَمْـــزُ شُمُـــوخٍ **** عَالِـــي الهِمَـــمِ
يَبْعَـــثُ مَجْـــدًا **** لِلْمُعْتَصِـــــمِ
عَلَـــمِي فَخْـــرِي **** عَلَمِي شَمَـــمِي
أُنْشِـــدُ لَحْنَـــهُ **** أُقْسِـمُ قَسَـــمِي(25)

عن طريق رمزية "العَلم"، فإن الشاعر خدم وطنه، وعلم الطفل أن الوطن أسرته، وأن عليه بالتصدي لكل استدمار أجنبي الذي يريد القضاء على لغته، وعقيدته، وتاريخه، وليرسم في أذهانهم الإعجاب بالثورة الجزائرية عن طريق الكلمة التي جاءت في قالب سهل، وجذاب.

كما وجه للطفل رسالة فحواها التزين بالأعلام الوطنية كلما حل شهر "نوفمبر"، حتى يجعل الطفل يعيش من أجل وطنه بكل جوارحه، وكيانه، وبأن يفهم بأن استقلال الجزائر جاء نتيجة ضريبة قدمها الشعب الجزائري، وقد صدق "عبد الحميد بن باديس" حين قال:

يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا *** وَبِكَ الصَّبَاحُ قَدِ اقْتَرَبْ

اهتم الشاعر في قصصه، وأشعاره برسم غلاف الكتاب، وأعطى له قيمة فنية زادته جمالا، يعبر عن مضمون أشعاره، وقصصه، وأحاسيسه، ومشاعره.

لقد أعطى المصريون قديما أهمية كبيرة للصور، والرسوم، التي تجسد الأفكار، وتعبر عن خيالهم. فالغلاف حين يكون جميلا يجذب ذهن الطفل إلى قراءة مضمون القصة، أو القصيدة، مما يسهل عليه فهم، وتحليل، ونقد، واستنباط، واستقراء مضمون القصة، أو القصيدة، كما ينمي لدى الطفل الحس الجمالي، ويعينه على فهم أحداث المضمون.

«فالرسم والصور الملونة تساهم في إخراج القصة إخراجا فنيا يزيد جاذبيتها، وأناقتها، على أنها وسيلة تعبر عن الحقيقة إلى الخيال العلمي للطفل، كما نرى بعض

القصص المصورة؛ فالثعلب يرتدي ثياب الواعظ، والمرشد، والأسد يلبس تاج الملك، وحوله وزراؤه، وحراسه، والحيوانات التي تمثل رعيته، والقطة ترتدي ثياب فتاة جميلة أليفة، وناعمة، ومجموعة الطيور، وقد كونت فرقة موسيقية، وهي ترتدي أثواب الموسيقيين، وتعزف على آلاتهم». (26)

وظف علامات الترقيم في قصصه التي توضع بين أجزاء الكلام المكتوب لإيضاحه، وتمييز بعضه عن بعض لغرض الفهم، ولهذه العلامات أهمية بالغة في فهم المعاني، وتوضيح التراكيب، وتنظيم الموضوع، وتجميله، وضبط مقومات القراءة السليمة.

نخلص من وراء هذه الدراسة أن الأديب "سعد مردف" واسع الخبرة، مطلع على ثقافة الطفل، مدرك لاهتماماته، وميولاته، ما يجعله يقبل على قراءة هذه القصص، وهذه الأشعار بشغف، فتتوسع مداركه، وتتضاعف تجاربه.

الخاتمة.

نخلص إلى القول بأن الكاتب "سعد مردف" قد وفق إلى حد كبير في بلورة صورة حية عن الطفل الجزائري في تجلياته المختلفة من خلال توظيف الآليات الفنية، والفكرية الضرورية لتحقيق استراتيجية إبداعية واعدة، تعكس فهما دقيقا للتحديات، والرهانات الكبرى التي يحيل عليها موضوع الطفولة في الجزائر.

القرآن الكريم برواية حفص.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد حسن، حندورة: أدب الأطفال، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط1، 1989.
2. جمال، مباركي: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، بحث ماجستير، (مخطوط)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة1، السنة الجامعية 1999-2000.
3. سعد، مردف: أبي لا تسرع، دار المجد للنشر والتوزيع، سطيف، 2021، (د، ط).
4. سعد، مردف: أحكي لكم، قصص أطفال للصغار والكبار، دار المجد للنشر والتوزيع، سطيف، (د، ط)، 2021.
5. سعد، مردف: الطفل الشاعر، مجموعة شعرية للأطفال، دار المجد للنشر والتوزيع، سطيف، (د، ط)، 2021.
6. سعد، مردف: أنا مريض، نصوص عن الأطفال، دار المجد للطباعة والنشر والتوزيع، سطيف، (د، ط)، 2021.
7. سعد، مردف: تسابيح الليل، ديوان الروح، دار المجد للنشر والتوزيع، سطيف، (د، ط)، 2021.
8. سعد، مردف: قصص مدرسية، نصوص للمطالعة، دار المجد للنشر والتوزيع، سطيف، (د، ط)، 2021.
9. سليمان، العيسى: ديوان الأطفال، دار الفكر المعاصر، لبنان، (د، ط)، 2005.
10. فصل، سالم العيسى: النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، (د، ط)، 2000.
11. محمد، بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، (د، ط)، 1979.
12. محمد، مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 1981.

الهوامش:

1- سورة يوسف، الآية: 9.

2- سورة القصص، الآيتان: 7-8.

3- سورة القصص، الآية: 9

4- الشنقيطي، أحمد، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الأندلس، بيروت، (د-ط)، 1983، ص: 153.

5- البستاني، فؤاد أفرام: الحطيئة، دار المشرق، بيروت، (د-ط)، 1982، ص: 314.

6- المرجع نفسه، ص: 315.

7- شرارة، عبد اللطيف: الرصافي، دار بيروت، (د-ط)، 1982، ص: 129.

8- المرجع نفسه، ص: 144.

9- فدوى، طوقان: الديوان، دار العودة، بيروت، (د-ط)، 1984، ص، ص: 120-121.
10- السياب، بدر شاكر: الديوان، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، (د-ط)، 1971، ص: 563.
11- زكي، نجيب محمود: في فلسلة النقد، دار الشروق، بيروت، ط1، 1979، ص: 92.
12- سعد، مردف: أنا مريض، نصوص عن الأطفال، دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع، سطيف، (د-ط)، 2021، ص: 20.
13- محمد، بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1979 ، ص: 269.
14- جمال، مباركي: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، بحث ماجستير، (مخطوط)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة1، السنة الجامعية: 1999-2000، ص: 30.
15- سعد، مردف: تسابيح الليل -ديوان الروح-، دار المجدد للطباعة للنشر والتوزيع، سطيف، (د-ط)، 2021، ص: 35.
16- سعد، مردف: قصص مدرسية، نصوص للمطالعة، دار المجدد للطباعة للنشر والتوزيع، سطيف، (د-ط)، 2021، ص: 13.
17- سعد، مردف: قصص مدرسية، نصوص للمطالعة، مصدر سابق، ص، ص: 9-10.
18- سعد، مردف: الطفل الشاعر، مجموعة شعرية للأطفال، دار المجدد للطباعة للنشر والتوزيع، سطيف، (د-ط)، 2021، ص: 5.
19- سليمان، العيسى: ديوان الأطفال، دار الفكر المعاصر، لبنان، (د-ط)، 2005، ص: 18.
20- سعد، مردف: أبي لا تسرع، مصدر سابق، ص: 13.
21- سعد، مردف: قصص مدرسية، نصوص للمطالعة، مصدر سابق، ص: 16.
22- سعد، مردف: أحكي لكم، قصص أطفال للصغار والكبار، دار المجدد للطباعة للنشر والتوزيع، سطيف، (د-ط)، 2021، ص: 5.
23- فصل سالم، العيسى: النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، (د-ط)، 2006، ص: 65.
24- محمد، مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د-ط)، 1981، ص: 96.
25- سعد، مردف: الطفل الشاعر، مجموعة شعرية للأطفال، مصدر سابق، ص: 5.
26- أحمد حسن، حندورة: أدب الأطفال، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط1، 1989، ص: 216.